الأسلوب القرآني بين الإعجاز والتحدي

أ. حمو عبد الكريم
باحث دائم بالمركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية
– جامعة وهران–

الملخص:

القرآن تميز بأسلوبه الفريد الدائر بين الإعجاز والتحدي، ومن بين أنواعه الإعجاز اللغوي، وكان من أبرز وجوهه هو ما ظهر في فصاحته وبلاغته، لأنه خطاب الله إلى الخلق أجمعين على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأزمانهم. وقد حضي أسلوب القرآن وإعجازه، بدرس وافرا واهتمام واسع، من قبل علماء اللغة والقراءات وأهل التفسير، ومن الأعلام البارزين الذين اشتغلوا بإظهار هذا الإعجاز: الخطابي، و علي بن عيسى الرماني ، وأبو بكر الباقلاني، والجرجاني، والرافعي، وسيد قطب، وعبد الله دراز رحمهم الله، وكل له لمسة في إظهار جانب من جوانب الإعجاز القرآني المبهر.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز، اللغوي، الفصاحة، البيان، الأسلوب، التصوير.

Summary:

The Qur'an was distinguished by its unique style revolving between the miraculous and the challenge, and among its types is the linguistic miraculous, and one of its most prominent aspects was what appeared in its eloquence and eloquence, because it is God's speech to all creation of different races, colors and times. The style of the Qur'an and its miraculousness has received abundant study and extensive attention by scholars of language, readings and the people of interpretation, and among the eminent scholars who have been busy demonstrating this miracle: Al-Khattabi, Ali bin Issa Al-Ramani, Abu Bakr Al-Baqlani, Al-Jarjani, Al-Rafi'i, Sayyid Qutb, and Abdullah Draz May

God have mercy on them, and each one has a touch in revealing an aspect of the dazzling miracle of the Qur'an.

Keywords: miraculousness, linguistics, eloquence, statement, style, photography.

مقدمة:

لقد اتخذ القرآن الكريم منهجاً فريداً في انتقاء اللفظة القرآنية مراعياً أبعادها الصوتية والاشتقاقية والدلالية، وحالتها في السّياق التركيبي العام، ولذا فاللفظة القرآنية في هذا الإطار تتمتع بكل عناية واهتمام منذ لحظة الاختيار إلى لحظة التوظيف النّصي، ومن ثم فكل مقطع أو مشهد في القرآن، في كل مطلع منه وختام، إلاّ ونجده ينحى أسلوباً إيقاعياً فنياً متميزاً، « كما أنَّ وضع الكلمة في الآية واختيار موقعها والتئامها مع جاراتها، له الأثر الكبير في إعطاء هذا الجرس الخاص والإيقاع المؤثر في نفس السامع»[1]. وقد تكلم العلماء عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم فحصروها في وجوه عدة منها اللغوي، ومنها العلمي، ومنها التشريعي، ومنها التأثيري ... وكان من أبرز هذه الوجوه في إعجاز القرآن هو ما ظهر من فصاحته وبلاغته، لأنه خطاب الله إلى الخلق أجمعين على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأزمانهم، وعندما عَلِمَه المؤمنون وجدوا فيه المتعة والجاذبية، فآمنوا به وأيقنوا أنّه الحـــق وعملوا بمقتضى آياته، ووقفوا عند حدوده واجتنبوا نواهيه، فأصبحوا بهداه مهتدين. وقد حضي أسلوب القرآن وإعجازه، بدرس وافرا واهتمام واسع، من قبل علماء اللغة والقراءات وأهل التفسير، ومن الأعلام البارزين الذين اشتغلوا بإظهار هذا الإعجاز: علي بن عيسى الرماني (ت:386هـــ)، وأبو بكر الباقلاني (ت:403هـــ)، وأبو عمرو الداني (ت:444هـــ)، ومحمد بن الحسن الطوسي (ت:460هـــ)، وجار الله الزمخشري (ت:538هـــ)، وأبو علي الطبرسي (ت:548 هـــ)، وإبراهيم بن عمر الجعبري (ت:732هـــ)، وبدر الدين الزركشي (ت:794هـــ)، وجلال الدين السيوطي (ت:911هـــ)...وغيرهم كثير.

ونكتفي بذكر بعض الأعلام الذيم أسسوا لبلاغة الأسلوب القرآني أمثال:

1- الخطابي: أكد الخطابي أنَّ الإعجاز القرآني كائن في نظمه فقال: «واعلم أنَّ القرآن إنَّما صار معجزاً لأنَّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مُتَضمنا أصح المعاني»[2]. وفي موضع آخر تحدث عن بلاغة القرآن في حروفه ولفظه وتراكيبه؛ فيقول: «وإنَّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشَّرف والفضيلة، حتى لا نرى شيئاً من الألفاظ أفصحْ ولا أجزلْ ولا أعذبْ من ألفاظه ولا نرى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل، إنَّها هي التي تشهد لها العقول بالتَّقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى الدرجات الفضل في نعوتها وصفاته»[3].

فقد استوعب الخطابي أساليب اللغة العربية ومعانيها، لهذا جاء بحثه من صميم الدَّرس الإعجازي، غير أنَّه يوجد من انتقد هذه الطريقة في الطرح، واعتبر أنَّ هذه الاطلاقات العامة في النَّظم القرآني غير مستندة إلى أمثله تطبيقية تشد عضدها.

2- الرماني: فقد حصر وجوه الإعجاز القرآني في سبعة وجوه، وهي ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدّة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة. وجعل القرآن أعلى رتبة من مراتب البَّلاغة، إذْ نراه يُقسم البَّلاغة إلى ثلاث طبقات: «منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسط بين أعلي طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلى طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من النَّاس»[4].

وبالتالي فإنّ سرّ الإعجاز القرآني عند الرُّمَّاني يكمن في البّديع، وفي وجوه البلاغة. فالعرب أعجزهم القرآن عن معارضته، رغم التحدي الذي طرق سمعهم وأقلق مضجعهم، وبهذا ندرك أنّ التحدي كان بالجانب اللغوي والبياني والبلاغي الذي اشتهر به العرب يوم نزول القرآن؛ بل إن كل متأمل في كتاب الله يظهر له منها ما لا يظهر لغيره، من أجل ذلك وجدناهم قد أفاضوا في ذكر هذه الوجوه،

حتى رأينا السيوطي يصرح بقوله: «إنّ القرآن لا نهاية لوجوه إعجازه»[5]، وجميعها تدل علي عظمة الله سبحانه، وتُقر بقدرته القادرة التي لا يحيطها شيء.

فالرماني ببحثه هذا مهد السبيل وأشار إلى طرق البحث، ويسر المؤنة على من جاء بعده من العلماء الذين أفادوا منه، واعترفوا من فضله وكانوا عالة عليه في كثير من أرائه وشواهده وأفكاره[6]، وهكذا نجد الرماني ذهب إلى أنَّ الإعجاز القرآني حاصل في نظمه بيانه، ولذلك وجدناه ركز على أوجه الإعجاز البلاغي واستطاع أنْ يجعل من دراسته مصدراً لكثير من العلماء.

3- الباقلاني: اعتبر كتابه "إعجاز القرآن" واجباً دينياً إلى جانب كونه عملاً علمياً، لذلك لم يدخر وسعاً وهو بصدد تحريره من أنْ يعمق فيه البحث ويتطرق إلى الكثير من القضايا التي تهمه وتهم المسلمين، وفي الوقت نفسه تَرَدُ على مظان الظانين، وتبطل أقوال الطاعنين.

ولقد دار الكتاب على قضايا متعددة منها: بيان شرف القرآن الكريم، والإخبار عن الغيب، وذكر وأميَّة الرسول ﷺ التي تؤكد أنَّه لم يكن يعرف شيئاً عن كتب الأولين، والإنباء عن قصصهم وسيرهم، و ذكر براعة نظم القرآن وبديع تأليفه وتناهيه في البلاغة[7].

ثم يعلق الباقلاني في سر التحدي الذي اختص به القرآن الكريم فيقول: «وإنما احْتيج في باب القرآن إلى التحدي، لأنَّ من الناس من لا يعرف كونه معجزاً، فإنما يُعرف أولاً إعجازهُ بطرق، لأنَّ الكلام المعجز لا يتميز ّمن غيره بحروفه، وصورته، وإنَّما يحتاج إلى علم وطريق يتوصل به إلى من معرفة كونه معجزاً»[8].

فالباقلاني يتفِق مع الرُّماني عندما جعل النَّاحية البلاغية وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وقد اعتبر الباقلاني أنَّ من يعرف أساليب البلاغة وآليات اللسان العربي وفنونها يدرك مقاصد القرآن الكريم وحواراته المتنوعة، وقال: « فأما من كان قد تناهى في معرفة اللسان العربي، ووقف على طرقها ومذاهبه- فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه وُسْعُ المتكلم من الفصاحة، ويعرف ما

يخرج عن الوُسع، ويتجاوز حدود القدرة– فليس يخفى عليه إعجاز القرآن، كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر »[9].

وأبرز شيء في إعجاز القرآن هو ما يظهر فيه جانب الفصاحة والبلاغة والبيان، وروعة ضبط المعاني ودقة ورود الألفاظ وانسجامها في مبانيها، وتنسيقها تنسيقاً يتناسب مع عذوبة الأسلوب، ثم إحكامها في الربط، بحيث تستولي على قلوب السامعين والمنصتين لهذا القرآن الكريم.

وأما موقفه من البديع فإنه يرى أنه لا يصلح أن يكون وجها إعجازياً في القرآن الكريم، إلا أنه لا يغفل قيمته الفنية ودوره الجمالي في تحسين الكلام وإيصال المعنى إلى الأفهام، فقال: « لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادّعوه في الشعر ووصفوه فيه، وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف؛ بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له، كقول الشعر ورصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق في البلاغة، وله طريق يُسلك ووجه يقصد وسلم يُرتقى فيه إليه... فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوع مثله–يعنى في غير القرآن–اتفاقًا»[10].

وبالتالي فالإعجاز قائم على النظم؛ أي الترابط القائم بين أجزاء السورة والآيات، وليس للبديع دخل فيه، وأنّ لكل سورة وحدة موضوعية مترابطة وذلك على مدار القرآن كله كموضوع القصص مثلاً.

4– الجرجاني: هو أديب ذواقة صانع للكلام، ألف كتابين في الإعجاز "الرسالة الشافية" و"دلائل الإعجاز"، وقد أعطى لفكرة النَّظم في القرآن صورة جديدة، ولعلها أروع صورة في تاريخ الإعجاز، بل هو مُؤسس علم الإعجاز مستفيداً مما سمعه من سابقيه ومستدركاً عما كتب في البَّلاغة وفي إعجاز القرآن الكريم.

ولقد عمد الجرجاني إلى البَّحث في البلاغة ووجوهها وأساليبها للارتقاء بالذوق البَّلاغي عند القارئ، ومن ثَّم ليضع يده على مواطن البلاغة في كل كلام بليغ، سواء كان هذا الكلام شعراً أو نثراً أو خطبة، ويبرز وجه الحُسن في الكلام من خلال أمثلة مختارة، مُبيناً قضية اللفظ وخواص النظم الذي فيهما شحذٌ

للبصيرة، وزيادة كشف عما فيها من السريرة، وبعد ذلك يلتفت من خلال تلك المقدمات، والأمثلة إلى تبيان إعجاز القرآن الكريم[11].

وقد انحصرت آراء الجرجاني في الإعجاز القرآني ضمن ثلاثة محاور:

أ- أنَّ القرآن الكريم معجز ببلاغته.

ب- أنَّ النَّظم هو الوجه الوحيد الذي حصل الإعجاز من جهته.

ج- بيان طبيعة النَّظم والتأليف وماهيتهما[12].

ولم يكن عبد القاهر أول من جعل النَّظم وجها لإعجاز القرآن، وإنَّما هناك من سبقه إلى ذلك؛ وقد نفى أنْ يكون الإعجاز في الكلمات المفردة أو في ترتيب الحركات والسكنات أو المقاطع والفواصل أو في الاستعارة تمهيداً لبيان أنَّ الإعجاز قائم في النظم. وفي ذلك يقول: « واعلم أنَّ ليس النَّظم إلا أنْ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النَّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرُّسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها »[13]. ويولي عبد القاهر أهمية كبيرة لمعاني النحو[14]، وخاصة ما تعلق بترتيب الألفاظ والجمل، مما يساعد في النظم، وفي هذا الشأن يقول: «هذا وأمر النَّظم في أنه ليس شيئاً غير توخي معاني النَّحو فيما بين الكلم، وأنَّك ترتب المعاني أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك»[15] .وقد نفى الجرجاني أن يكون الإعجاز في الإخبار عن الغيب، أو في الصرفة، أو في الألفاظ، أو في المعاني، أو في الفواصل والايقاع، أو في خفة الحروف، أو في الاستعارات.. ليصل إلى القول بأن الإعجاز كامن في نظمه، «واذا امتنعت هذه الأسباب أن تكون أصلا في الإعجاز، لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف، لأنه ليس بعد ما أبطلنا أن يكون فيه إلا النظم»[16]. ثم يرد الجرجاني ادعاء من زعم أن عجز العرب لم يكن لأجل أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل نظم القرآن، ولكن العجز ظهر فيهم لأنهم تحدوا بأن يأتوا بنظم في مثل نظم القرآن، ومعلوم أن هذا غير متمكن لديهم، ولا يصح التحدي إلا بما يتصور وجوده، وما يدخل في حيز الممكن، ويورد الجرجاني شواهد كثيرة من الشعر والنثر تؤيد وجهة نظره وتوضح هدفه، بعد ذلك يقول: «وإذا كان الأمر كذلك، لم يمتنع

أن يكون سبيل لفظ القرآن ونظمه هذا السبيل، وأنْ يكون عجزهم على أن يأتوا بمثله عن طريق العجز عما ذكرنا ومثلنا»[17].

وبهذا تكون قد اتضحت فكرة الجرجاني ومفهومه للإعجاز القرآني، الذي بناه على أساس النظم وجعله وجها يعلوا كل الوجوه، وبنى عليه كل آرائه؛ بل جعله محو تأليفه وتصانيفه التي خصصها لدراسة البلاغة العربية عامة، والقرآنية خاصة.

أما أهل التفسير فقد تناولوا مسألة الإعجاز القرآني في تفاسيرهم باعتبار أنَّ القرآن معجزة من وجوه مختلفة، بعضها خاص بالعرب الذين درسوا اللغة العربية وتذوقوا بلاغتها، وبعضها الأخر عام يدركه العقلاء من النَّاس على اختلاف أجناسهم، فأما ما كان للعرب من ذلك فهو بديع نظمه وحسن تأليفه وسمو بلاغته إلى الحد الذي يعجز الإتيان بمثله[18].

وقد وضح الأستاذ شيخون أوجه الإعجاز وحدّها في:

أ- ما فيه من الأخبار عن المغيبات.

ب- ما فيه من الأخبار عن الماضي السحيق من حين خلق آدم إلى مبعث محمد عليه السلام.

ج- ما يتضمنه هذا الكتاب من التشريع العظيم الدقيق[19].

فمن المفسرين من تناول أساليب الإعجاز القرآني في آيات التَّحدي مثلاً في سورة البقرة أو سورة العنكبوت أو سورة الزخرف... وقد اجتهدوا في بيان وجوه الإعجاز البياني والبلاغي والأسلوبي؛ كذلك عملوا على إبراز قيمة الحرف والمفردة والجملة في السياق القرآني، وهم في ذلك بين مطنب في عرضها ومقتصد، ومن أبرز هؤلاء: الزمخشري في "الكشاف"[20]، الرازي في التفسير الكبير[21]، وأبو حيان الأندلسي في "البحر المحيط"[22]...

ومن المفسرين مَنْ أفرد في مقدمة تفسيره موضوعات تتعلق باللغة العربية والإعجاز القرآني، نذكر منهم: تفسير المحرر الوجيز لابن عطية[23]، وتفسير الجامع

لأحكام القرآن للقرطبي، وتفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي...

أما في العصر الحديث فقد اهتم نخبة من الأدباء والباحثين بقضية الإعجاز نذكر منهم مصطفى صادق الرافعي، وسيد قطب، ومحمد عبد الله دراز، والإمام محمد متولي الشعراوي.

5- الرافعي: يبدأ الرافعي حديثه عن الإعجاز بالحمل على جهود السَّابقين ممن أثاروا إشكالية الإعجاز، فقد أشَّار إلى أنَّهم أطالوا الخصومة وفخموا ما شاءوا ومضغوا من الكلام ما ملأ أفواههم وجاءوا بفلسفة ومنطق... بيد أنَّهم في كل ذلك إنّما توافوا على صنيع واحد من الرد بعضهم على بعض، فمن فلج بحجته قطع خصمه عن المعارضة وأفحمه دون المناضلة، وكان الرأي في الإعجاز ما رآه هو، وكان أكبر برهان على صوابه عجز خصمه عن تخطئته[24].ويرى الرافعي أنَّ نطاق الإعجاز في القرآن يتحدد في المعنى، فيقول: «وأما الذي عندنا في وجه الإعجاز وما حققناه بعد البحث -وانتهينا إليه بالتأمل وتصفح الآراء وإطالة الفكر وما استخرجنا من القرآن نفسه في نظمه ووجه تركيبه واطراد أسلوبه- إنَّ القرآن مُعجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه حين ينفي الإمكان بالعجز غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً»[25]. فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب ومعجز في أثره الإنساني، ومعجز كذلك في حقائقه، ويحدد الرافعي خصائص الأسلوب القرآني في وجوه ثلاث هي:

أ- إنَّ الأسلوب القرآني مباين بنفسه لكل ما عرف من أساليب البلغاء في خطابهم، وتنزيل كلامهم حيث نراه يجئ على نمط واحد من الدقة والإحكام لا تلمس فيه تفاوتاً بين موضع وموضع، ولا تحس فيه فتوراً ولا خللاً فكأنه قطعة واحدة مع طول القرآن.

ب- إنَّ الأسلوب القرآني فيه من اللّين والمطاوعة على التقليب والمرونة في التأويل، بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتفاوتة على اختلاف العصور فهو يفسر في كل عصر حسب ما يتهيأ لأبناء هذا العصر من قدرة على الفهم.

ج- انسجام الأسلوب القرآني وخلوه من الغرابة فهو يسيل بسهولة، وهذه السهولة في كثير من الكلام، وكثير من أغراضه تقتضي الابتذال، ولكنها في القرآن كله وعلى تنوع أغراضه لا تقتضي إلاّ بالإعجاز، إنّها سهولة الأوضاع الإلهية التي يعرفها كل الناس ويعجز عنها كل الناس[26]. فكلما كان الأسلوب بليغاً ويراعي أحوال المخاطبين، يكون مؤثراً في النفس البشرية، والخطاب القرآني هو خطاب الله تعالى إلى الخلق أجمعين على اختلاف أجناسهم وأزمانهم، لأنه يعلو على سائر الكلام، وفي النّهاية يسرع المؤمن للدخول فيه عن علمٍ ويقين، ويدرك أنّ السّر في بيانه وفي تناسق ألفاظه، وهذا ما جعلهم يخضعون له ويعترفون أنه المعجزة الخالدة إلى يوم الدين.

6- سيد قطب: تدور فكرة الإعجاز عنده في جمالية الأسلوب والتصوير الفني في القرآن، وقد تحدث عن التصوير فقال:« إنَّه تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالإيقاع»[27].

ولقد أثرت آيات القرآن في نفس سيد قطب وأُعجب بحلاوته وفصاحته، لما له من سطوة على النُّفوس وما له من روعة في القلوب، والقرآن ينفذ بسلطانه إلى العقل والروح كما يقول:« إنَّ في هذا القرآن سراً خاصاً يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء، قبل أنْ يبحث في مواضع الإعجاز فيها، إنَّه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أنَّ هناك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل في التعبير، وأنَّ هناك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن يدركه بعض الناس واضحاً، ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه في كل حال موجود، هذا العنصر الذي ينسكب في الحس يصعب تحديد مصدره، أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنَّها لشيء آخر وراءها غير محمود؟»[28].فالفضل يعود للأديب سيد قطب في اكتشافه لقاعدة أساسية في أسلوب القرآن الكريم وهي قضية "التَصوير الفني"، « فلم تكن مفردات القرآن وحدها شاغلة له بموسيقاها، ولا تراكيب القرآن مستأثرة باهتمامه بتناسقها

وترابطها، وإنَّما كان نظره مركزاً في الأداة المفضلة للتعبير في كتاب الله، ولقد وجدها في التَّصوير، وراح يتحدث عنها بأسلوب شِّعري يستهوي النُّفوس ويهديها بحق إلى جمال القرآن»[29].

والإعجاز الصوتي والإيقاع القرآني، كان حاضران في كتابات سيد قطب خاصة عندما يتناول اللفظ القرآني وعلاقته بالنظم.

7- محمد عبد الله دراز: يرى أنَّ الإعجاز القرآني له ثلاثة وجوه: منها ما هو تشريعي، ومنها ما هو لغوي، ومنها ما هو علمي، ويبرز "دراز" أنَّ خصائص القرآن البيانية تتضمن أربع مراتب:

أ- القرآن في قطعة منه، وذكر من أوجه الإعجاز فيها القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى، وخطاب العامة وخطاب الخاصة وإقناع العقل وإمتاع العاطفة والبيان والإجمال، والإيجار بالحذف مع الوضوح والطلاوة.

ب- القرآن في سورة منه، وذكر الانتقال من معنى إلى معنى اشق منه، وفي التنقل بين أجزاء المعنى الواحد، ونزول القرآن مفرقاً على تباعد زمني وتنوع موضوعي، ومع تلك العوامل جاء القرآن في قمة الترابط.

ج- القرآن فيما بين السور.

د- القرآن في جملته[30].

8- الشعراوي: بذل الإمام جهداً كبيراً في إبراز جوانب الإعجاز في القرآن، ورأى أنَّه يحوى إعجازات كثيرة ومتنوعة، والإعجاز عنده ليس إعجازا في البَّلاغة فقط، ولكنه «يحوي إعجازاً في كل ما يمكن للعقل البشري أنْ يحوم حوله، فكل مفكر متدبر في كلام الله يجد إعجازاً، فالذي درس البلاغة رأى الإعجاز البلاغي، والذي تعلم الطب وجد إعجازاً طبياً في القرآن الكريم، وعالم النباتات رأى إعجازا في آيات القرآن الكريم، وكذلك عالم الفلك»[31]. ويبدو أنَّ الشعراوي سار على نهج سلفه الذين رأوا تنوع مصادر الإعجاز في القرآن، فلم يُصادر أراءهم، وإنَّما سار على خطاهم وأثبت الإعجاز، وألَّف في ذلك مؤلفات منها "معجزة القرآن"؛ فنظرته شمولية اتسعت تقريباً كل أجزاء الإعجاز خاصة منها

الإعجاز اللغوي والبلاغي، حتى أصبح تفسيره يُنعت بالتفسير اللغوي والبلاغي لكثرة طروحاته اللغوية والبيانية والفنية والبديعية.

إنَّ دراسات الشعراوي اللغوية والبلاغية لم تخرج عن جهود المفسرين الذين سبقوه، حيث يشترط الشعراوي في المعجزة شرطين يجب أنْ يتحققا:

أ- أنْ تكون خرقاً لقوانين البَّشر ولا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى الذي وضع هذه القوانين.

ب- أنْ تكون مما نبغ فيه قوم النبي أو الرسول الذي ظهرت على يَّديه، حتى يكون التَّحدي نابغاً وقوياً وإثباتاً على قدرة الله سبحانه وتعالى[32]، وإلى المنحى نفسه ذكر هذا الزمخشري في الكشاف؛ إذ رأى أنّ الإعجاز في القرآن على وجهين:

1- من جهة إعجاز نظمه.

2- من جهة نافيه من الإخبار بالغيب[33].

وقد ذكر الزمخشري أثناء تفسير قوله تعالى:﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ... ﴾[34]، أنه أنزل متلبساً بما لم يعلمه إلاَّ الله من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه[35].

فالإعجاز الموجود في القرآن هو في الأسلوب وفي حقائق القرآن وفي الآيات وفيما رُوِيَ لنا من قصص الأنبياء السابقين، وفيما صحح من التوراة والإنجيل، وفيما أتى به من علم لم تكن تعلمه البشرية وما زالت حتى الآن لا تعلمه، كل ذلك يجعل القرآن لا ريب فيه، لأنَّه لو اجتمعت الإنّس والجن ما استطاعوا أنْ يأتوا بآية واحدة من آيات القرآن، ولذلك كلما تأملنا في القرآن وفي أسلوبه وجدنا أنَّه بحق لا ريب فيه، لأنَّه لا أحد يستطيع أن يأتي بآية، فما بالك بالقرآن. وبالتالي فالتأليف بين الكلمات والاتساق بين الجمل من خواص النظم، ولا حدوث لهذا إلاَّ وفق سنن اللغة العربية المعروف، والقرآن الكريم هو من قياسات الكلام العربي الذي أعجز الأولين والآخرين من العرب والعجم، على أنَّه مركب من جنس حروف العرب، وهذا أدلّ على الإعجاز باعتباره مشاكلاً لكلامهم، وعلى سنن تراكيبهم، يقول

الطبرسي (ت:548ه): «إنَّ الحروف مباني كتب الله المترلة بالألسنة المختلفة، وأصول كلام الأمم»[36]، ولهذا إنَّ مخالفة قانون اللغة العربية في البناء وفي الأقيسة لا يحقق شرط الفصاحة والنظم. وهذا ما رعاه أسلوب القرآن الكريم ووُفق فيه.

ونخلص من هذا كله إلى أنّ البلاغيين قد بينوا أسلوب القرآن القائم على التحدي والإعجاز، ووضعوا المصطلحات البلاغية والنقدية، وهندسوا أبنيتها الفنية من خلال التوصل إلى إعجاز القرآن البلاغي؛ وقد راح المحدثون يدورون في فلكهم وينهلون من تراثهم، من خلال مصطلحاتهم التي اخترعوها، وبنوا عليها نظرياتهم الأدبية والنقدية، والتي رأينا فيها نماذج منها تتطابق وتتقارب في مضامينها ومؤدّاها الفني مع المصطلحات البلاغية العربية التي أبدعتها نظرية النظم، وكان لهم فضل السّبق والريادة في ذلك.

الهوامش:

(1) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط2 ، 1988، ص 145.

(2) بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرمّاني والخطابي و الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله و محمّد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة، مصر، ط3، 1976، ص 26.

(3) المرجع نفسه، ص 27.

(4) نفسه، ص 75.

(5) معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988، 1 /35.

(6) ينظر: البيان في ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1977، ص 31.

(7) ينظر:إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ص47.

(8) المرجع السابق، ص 496.

(9) نفسه، ص 286.

(10) نفسه، ص69.

(11) ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، د.ت، ص 249.

(12) ينظر: الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره، عبدالغني محمد بركة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1،1989، ص 65.

(13) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 55.

(14) ينظر: النحو والدلالة، محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، مصر، ط1، 2000، ص 22.

(15) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 55، ص 284.

(16) ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 85.

(17) المصدر السابق، ص 141.

(18) ينظر: النظم القرآني في كشاف الزمخشري، درويش الجدي، دار نهضة مصر، 1969، ص 18.

(19) ينظر: الإعجاز في نظم القرآن، محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، ط1، 1978، ص 23.

(20) نال الزمخشري شهرة كبيرة بتأليف تفسيره "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، حيث استطاع أن يقدمه في صورة جديدة، موظفاً أساليب البلاغة والبيان وشواهد العرب من الشعر والنثر، وارتبط مفهوم النظم عنده بعلمي البيان والمعاني؛ حيث أبان عن استحالة قراءة النص القرآني إلا بهما، وعلى المتصدي للنص المعجز أنْ يتزود بأدواتهما للوقوف عند طرائق التعبير في هذا النص وللوصول إلى الحقائق الجمالية المؤسسة للإعجاز في النص القرآني. «كما يعنيه ذوق أدبي مرهف يقيس الجمال البلاغي قياساً دقيقاً وما يُطوى فيه من كمال وجلال، وهو من هذه الناحية ليس له قرين سابق ولا لاحق في تاريخ التفسير، بل لقد بذّ الأوائل والأواخر، حتى لنرى أهل السنة يشيدون به وبتفسيره، على الرغم من اعتزاله، ومخالفتهم له في عقيدته الاعتزالية»، ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص 219– 220.

(21) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1،1982/34–40.

(22) تفسير البحر المحيط ، أبو حيان الاندلس، دار الكتب العلمية، ط1، 1،1993/60–70.

(23) يرى ابن عطية أن إعجاز القرآن هو في نظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه، وهو بهذا الرأي يجمع وجوها من آراء سابقيه من العلماء، فليس النظم وحده هو وجه الإعجاز كما يرى الجاحظ، وليس صحة المعاني وتوالي فصاحة الألفاظ وحدها هي وجه إعجاز كما

يرى عبد القاهر الجرجاني، وإنما هو يجمع هذه الأمور ويجعلها وجها واحداً للإعجاز، ومجملاً فإن موقف ابن عطية من وجوه الإعجاز أنه يرى أن الإعجاز إنما يكمن في نظمه وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه لا في صفة الكلام القديمة ولا في أخباره عن الغيوب، كما لا يرتض القول بالصرفة بل رده وأبطله ولم يكثر من الأسرار البيانية والنكات البلاغية، ووجوه الإعجاز البياني...ولعل السر في ذلك أنه كغيره من علماء الأندلس و المغاربة لم يشغل نفسه كثيرا بعلوم البلاغة العربية والبيان، ولم يعتكف على مسائلها، وهذه العلوم هي التي تعرف بها وجوه إعجاز القرآن في أسلوبه ونظمه، وقد نشأة هذه العلوم المشرق وتوفر المشارقة على درسها وشرحها وتأليف المصنفات فيها، أما المغاربة فكانوا أقل شأنا منهم في هذا الميدان. ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب ابن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، 52/1.

(24) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص 99.

(25) المرجع السابق، ص 156.

(26) نفسه، ص 205.

(27) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، ط16، 2002، ص 102.

(28) في ضلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط2، 2002، 605/7.

(29) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، عدنان زوزو، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1998، ص 169.

(30) ينظر: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، 1984، ص 138–204.

(31) تفسير الشعراوي، مراجعة: أحمد عمر هاشم، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، مصر،1991، 106/1.

(32) ينظر: تفسير الشعراوي، 6375/10.

(33) ينظر: الكشاف، الزمخشري، 138/3.

(34) سورة يونس، الآية: 39.

(35) ينظر: الكشاف، الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ط1، 1998، 2/ 262.

(36) مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط1، 1995، 33/1.